

أشعاره صدفة، بل هو وأشعاره ثمرة من ثمرات البيئة المكانية الجغرافية والزمان وما يجري فيه من أحداث سياسية وظروف ثقافية. وخير مثل يصور ذلك كتاب المغرب لابن سعيد الغرناطى نزيل القاهرة وحلب، وفيه ترجم لشعراء مصر والمغرب والأندلس موزعاً لهم على أقاليمهم ومواطنهم سواء أكانت حاضرة كبيرة أم قرية صغيرة، وهو في كل موطن يبدأ بوصفه جغرافياً، وإذا كان حاضرة لإمارة أو لولاية ترجم لحكامه ثم لمن نشأ به من الوزراء وأبناء البيوتات والقضاة والكتّاب والفلاسفة والعلماء من كل صنف، ثم للشعراء النابيين ومن اشتهر به من الوشاحين والزجالين. وهذا الكتاب يصحح ما وقع فيه بعض المؤرخين المعاصرين لأدبنا العربي من خطأ، إذ ظنوا أن أسلافنا لم يعنوا في دراستهم للشعراء بعرض بيئاتهم وعصورهم وما كان بها من ظروف سياسية وثقافية، وراحوا ينوّهون في إكبار مؤرخي الآداب الفرنسية في القرن التاسع عشر، وكيف أنهم يلتمسون الشاعر لا في نفسه، وإنما في المؤثرات التي أحدثته من المكان وما يتصل به من الأحوال الجغرافية ومن الزمان وما يتصل به من الأحداث السياسية والاجتماعية والفكرية، وغاب عنهم ابن سعيد وأمثاله من مؤرخي السير والتراجم الأدبية الذين لمعوا على صفحة تاريخنا الأدبي قبل ظهور مؤرخي الآداب الفرنسية بنحو ستة قرون. وليس هذا كل ما يلفتنا إليه كتاب المغرب لابن سعيد، إذ يلفتنا أيضاً إلى ظاهرة مهمة يظن بعض الباحثين اليوم أنها كانت غائبة عن الأسلاف، ونقصد ظاهرة الاهتمام بالآداب الشعبية، إذ عنى ابن سعيد بالزجل والزجالين في كتابه عناية واسعة. وكانت فنون شعرية شعبية أخرى أخذت تشيع في العصر من مثل المواليا والقوما والكان وكان فتصدى لها وللزجل صفي الدين الحلّي الذي أقام في الشام ومصر طويلاً، فصور أساليبها وطرق نظّمها تصويراً بديعاً في كتابه «العاطل الحالى والمرخص الغالى» ولعل من الطريف أن نعرف أنه اختار القاهرة لينشر فيها ديوانه لأول مرة، ومنها ذاع في العالم العربي.

وعلى نحو ما نمتى علماء العصر العلم وأضافوا إليه من ذات عقولهم نمتى أدباؤه الأدب وأضافوا إليه من ذات نفوسهم، وليس بصحيح أنهم أفنوا شخصياتهم في